

## رحلة

ميشال كرم

Michelkaram2@hotmail.com

قلعة طرابلس حوار الماضي مع الحاضر  
بدأت مسيرة المصالحة مع ذاكرتها التراثية

قلعة طرابلس التاريخية فوق تلة تطل على نهر ابوعلي. تعتبر من اهم القلاع الاثرية والسياحية في لبنان لما تحتضنه من معالم حضارية، تراكمت عليها عبر تاريخها، والاكثر تعرضا للتخريب في منشأتها، حتى ان حروب طرابلس تركت بصماتها في انحائها، وزادت الابنية السكنية التي ارتفعت من حولها عشوائيا في الانتقاص من وقارها وهيبته



قلعة طرابلس من فوق.

سموها "دار العلم"، وانشأوا مكتبة كانت تحوي مئة الف مجلد، فكان عملهم شبيها بما قام به سيف الدولة في حلب، وان من جملة من أم مكتبة طرابلس ابوالعلاء المعري، حتى بلغت المدينة في اثناء حكمهم الذروة في الشهرة العلمية. لكن هذه الفترة لم تدم طويلا بسبب الحصار الطويل الامد الذي ضربه الافرنج على المدينة وهددها بالمجاعة، وأدى الى ضرر كبير في معظم معالمها، وبخاصة مكتبتها المعروفة باسم "دار العلم" العامرة بالمعرفة، والتي كانت تنافس مكتبة بغداد فيما حوت من كتب ومجلدات ومخطوطات ووثائق.

لكن هناك من يعتبر ان القلعة اسسها القائد العربي سفيان بن مجيب الازدي في العام 636، واسس اول حصن في الموقع الذي تقوم عليه القلعة اليوم، وعرف باسم "حصن سفيان". وذلك حين اتي لحصار طرابلس في اوائل عهد الخليفة عثمان بن عفان، وبنى فيها الفاطميون مسجدا في اوائل القرن الحادي عشر، والقائد التولوزي ريموند دي سان جيل حصنا فوقها في العام 1103، وحوله الامير المملوكي اسندمر الكرجي في العام 1307 الى قلعة محصنة بالابراج، وازاد السلطان العثماني سليمان بن سليم الاول في العام 1521 البرج الشمالي اليها.

بناء القلعة كما يبدو اليوم خليط من اساليب هندسية مختلفة، منها الصليبي والمملوكي والعثماني، الا انها تحمل دلائل فينيقية. اذ ان بعض العلماء اجروا تنقيبات في داخلها وعثروا على حجارة نقش عليها عبارات باللغة الفينيقية. يعتقد ان هذه الحجارة الفينيقية قد نقلها المماليك بعد تدمير المدينة القديمة التي كانت قائمة عند البحر، فاعادوا ترميم القلعة والاسواق بما يتناسب مع خططهم واهدافهم العسكرية. يتفق المؤرخون على ان القلعة من اهم القلاع

قلعة طرابلس  
من اهم القلاع الحربية  
الاثرية في لبنان

بحسب المؤرخين، فان حكام بني عمار قاوموا الحصار المفروض من الافرنج على مدينتهم طرابلس الى ان سقطت في 26 حزيران 1109، بعد مرور 4 سنوات على وفاة ريموند. الا انهم تمكنوا خلال فترة الحصار من الاهتمام بالعلم، وبنوا مدرسة

كانت هذه القلعة تعرف باسم قلعة "سان جيل" او "صنجيل"، تيمنا بالكونت الصليبي ريموند دي سان جيل الذي عمد سنة 1103 الى بنائها بهدف فرض الحصار على طرابلس، وسماها "قلعة الحجاج" كما ذكر المؤرخ فيليب حتي في كتابه "تاريخ لبنان" الذي اشار ايضا الى ان "هذه القلعة كانت اولي القلاع العديدة التي بناها الصليبيون على التلال المحاذية للشاطئ، وان الاتراك قد رمموها وجعلوها سجنا يعرف بقلعة طرابلس، والانكليز اقاموا فيها خلال الحرب العالمية الثانية مدافع مضادة للطائرات. اما واجهتها الشرقية التي يطل المرء منها على نهر ابي علي، فيعود زمن بنائها الى القرن الثاني عشر".



في التاريخ.



مع ابراجها.

الحربية الاثرية في لبنان، ومن ابرز المواقع الاستراتيجية لشن الحملات العسكرية وخوض الحروب. تتميز باحتفاظها بمعظم اثار الحقب التاريخية التي عاصرتها، وانها استطاعت صد كل المهاجمين ما عدا المماليك الذين خرقوا تحصيناتها ودخلوا اليها في العام 1289 وعمدوا الى احراقها. ثم اعاد بناؤها الامير اسندمر كورجي بين عامي 1307 و 1308، ورممها السلطان سليمان القانوني، وتحولت الى سجن في اواخر العهد العثماني. كما تأثرت بالزلازل التي ضربت المدينة في الاعوام 1157 و 1170 و 1200، فالحقت تصدعات وانهيارات في بعض منشأتها.

تألقت القلعة من اربع طبقات، وهي مستطيلة الشكل. بلغ طولها من مدخلها الشمالي الى اقصى طرفها الجنوبي 136 مترا، بعرض متوسطي يصل الى 70 مترا. بلغ طول الخندق فيها نحو 70 مترا، وعرضه 5 امتار بعمق يتراوح بين مترين وثلاثة امتار. بنيت بحجارة الرمل الناعم التي شيدت مرصوفة فوق بعضها البعض بطريقة هندسية متماسكة ومتمينة، وحملت نقوشا ذات خصائص صليبية، وضمت في داخلها حماما كبيرا وثلاثة مساجد، احدهم فاطمي مضمن الاضلاع مع بقايا مئذنة بناها امير طرابلس جلال الملك بن عمار، والثاني هو جامع القلعة الكبير الذي بناه والي طرابلس مصطفى آغا بن اسكندر باشا الخنجري في العام 1518 في عهد السلطان العثماني سليم الاول، والمسجد الثالث بناه والي طرابلس مصطفى آغا بربر في العام 1802. تحوي على اسطبل للخيول، وقاعات استخدمت مقارا للقادة العسكريين، وقاعات واسعة للجنود واخرى للمدفعية والذخيرة، وابار وخزانات للمياه واحواض للشرب، وباحات واسعة للاستعراضات والتمارين العسكرية.

فيها ابراج تزين قاعاتها بالقناطر، ويذكر المؤرخون ان عددها وصل الى 25، من بينها برجان يرتفعان خمسة امتار، يقال ان السلطان سليمان القانوني رممهما وجدهما في العام 1521 ولهما اربع فتحات وشرفات

الاسهم، وعند مدخلها باب كبير اضافة الى بابين صغيرين، انشئ الاول في اسفل البرج الثاني عشر، والثاني في قاعدة البرج الثاني والعشرين. تجاوز عدد فتحات المدافع العشرين وعدد مزاعلها ومكاحلها السبعين. ارتبطت القلعة قديما برواية اسطورية شهيرة مع احد الثعابين الذين عهد اليه في حراسة القلعة وكنوزها ومخابئها، وقد وردت قصته في تاريخ طرابلس للزين، الذي اشار الى ان الاهالي كانوا يعتقدون "ان هناك افعى هائلة تمد رأسها من اعلى القلعة على شكل قنطرة لتشرب من مياه نهر ابو علي في جوار القلعة"، وقد ذهب الخيال الشعبي الى رواية اخبار مخيفة عن هذه الحية

مخصصة للحرس، وفي البرج السابع صهريج كبير لتجميع المياه، واثنان اخران في جوار البرج الكبير، وناغورة تستخدم لسحب مياه نهر ابو علي الذي يمر في جانبها. كما يوجد في اعلى القلعة فتحات مخصصة للمدافع، وفتحات صغيرة للمراقبة ورمي

ارتبطت قديما  
باسطورة ثعبان اثار  
فيها الرعب

علما ان مدة تنفيذه كاملة كانت خمس سنوات، ما اثار قلق الجهات الممولة والمانحة العاملة في اطار هذا المشروع، باعتبار ان تأهيل المدينة التاريخية وقلعتها هو المفتاح الفعلي لكل تقدم انمائي واقتصادي واجتماعي، والذي من شأنه ان يعيد الحركة السياحية والاقتصادية والانمائية ويخفف من اعداد "جيش" العاطلين عن العمل الذي يزداد سنويا.

تضمن المشروع انشاء ممرات آمنة في القلعة يتمكن خلالها السياح من التجوال في مختلف ارجائها، وتدعيم منشآتها التي تؤثر الى وجود خطر انهيارها، وبالتالي تنظيف كل اقسامها، ووضع لوحات ارشادية باللغات الثلاث العربية والفرنسية والانكليزية لشرح قيمتها التاريخية والمراحل التي شهدتها، وانشاء حمامات ومركز للاستعلامات وتوزيع سلات مهملات في كل مسارات القلعة، الى تشييد متحفين، احدهما يحتضن تاريخ طرابلس وصورها ووثائقها والمعطيات التي تؤرخ المراحل التي مرت فيها، ويتضمن ايضا الاثار التي جمعتها البلدية والموجودة في المتحف الوطني المركزي في بيروت لعرضها داخل المتحف الطرابلسي. اما الثاني فيشمل الاثار المتعلقة بمنطقة الشمال، وبخاصة منطقة عكار مثل تلة عرقة وغيرها.

لكن ما جرى تنفيذه هو ترميم مداخل القلعة واعمال كثيرة لحظتها المرحلة الاولى، الى انشاء المتحفين اللذين اصحا جاهزين تمهيدا لافتتاحهما. وتنشط البلدية الحالية برئاسة المهندس احمد قمر الدين لاستكمال الاعمال في القلعة ومحيطها.

القلعة الطرابلسية الواقعة على بعد 85 كلم عن بيروت، ونحو 40 كلم عن الحدود السورية، والتي شكلت صلة الوصل بين الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط والداخل السوري والعربي، ما جعلها تضم كما هائلا من البنى التاريخية لحضارات متعددة، تتطلع بشغف الى انجاز مشروع ارث ثقافي بالكامل لمواصلة الحوار مع الماضي وربطه بالحاضر، حتى تعود المدينة زاهية بكنوزها وقبلة للسياح.



واجهتها الخارجية لواجهة نهر ابوعلي.



القلعة من الداخل، وتظهر الابنية السكنية التي تزينها.

” استعادت تألقها مع تمركز الجيش فيها وتنظيمها بالتعاون مع البلدية

“

العامّة الإيطالية للتعاون والتنمية، في اشراف مجلس الائمة والاعمار، من اجل حفظ اثارها وتراثها وذاكرتها الحضارية والثقافية، لتعود مدينة دار العلم والعلماء الى سابق وهجها الاثري والتاريخي وحاضنة للسياحة والتراث. وتطوي مع هذا المشروع سنوات من الحرمان والفوضى المستشرية في هذه المواقع. لكن هذا المشروع الذي بدأ العمل به منذ العام 2005، مضى عليه اكثر من 10 سنوات من دون استكمال تنفيذ مرحلته الاولى.



مدفع القلعة.

” خيال شعبي عن سراديبها بعد مدامات الدولة لثوار 1958

“

في عهدة الجيش اللبناني الذي قام بالتعاون مع بلدية طرابلس ورئيسها العميد الدكتور سامي منقارة بتنظيف جدرانها وحجارتها، ثم انارتها بشكل فني في ظل رئاسة العميد سمير شعراي. الى ان حظيت مع رئاسة المهندس رشيد جمالي بخطة لاعادة ترميمها وتأهيلها بشكل كامل مع الاسواق القديمة المحيطة بها، من ضمن "مشروع حماية الارث الثقافي وحياته" الممول من البنك المركزي الاوروي والوكالة الفرنسية للتنمية والمديرية

التي نبت لها في رأسها شعر وقرون، وهذه الخرافة التي لهجت بها اللسان كثيرا في الاوساط الشعبية اثارت المخاوف والرهبه في بعض نفوس صغار السن، وقد تجنب العديد من العامة المرور بالقرب من القلعة خوفا منها.

نسج الخيال الشعبي قصصا عن سراديب القلعة ونهرها، وبالغ في سردها الى ما يكاد يخرجها عن حد المعقول، واذاف اليها شتى الحكايات خصوصا في مطلع العام 1975 حين قامت الدولة اللبنانية بحملة لالقاء القبض على المطلوبين المختبئين في الاسواق الداخلية. اذ انتشرت اشاعات مضخمة عن واقع هذه السراديب التي يستخدمها الخارجون عن القانون، فجمعت حول طرافتها وغرابتها المعجبين الذين ازدادوا اقبالا لمعرفة اسرارها، بعدما اشيع عن ان هذه السراديب موصولة ببرج السباع في الميناء، وتارة بحديقة طرابلس العامة في ساحة التل او غيرها من الاماكن البعيدة نسبيا عن القلعة. لكن سرعان ما تبين ان هناك قنوات قديمة لمياه ري البساتين تتصل بقناة الحزوري حيث في امكان المرء ان يمر فيها بالنظر الى حجم قطرها، وقد استعملها ثوار 1958 للوصول الى السقي، ما حير السلطات يومها التي اقدمت على حرق اجزاء منه.

تعرضت القلعة خلال حروب طرابلس لاضرار وتصدعات في بعض اقسامها، والى سرقة الكثير من اثارها الفينيقية والرومانية والفاطمية والصليبية والمملوكية والعثمانية، فضلا عن الكثير من التخريب طاول احجارها وممراتها وقاعاتها الداخلية.

مع بداية الحرب اللبنانية دخلتها "حركة 24 تشرين"، وانشأت فيها اذاعة كانت تبث بيانات الحركة الى الطرابلسيين، ثم توالى الاحزاب اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية على دخولها، الى ان استقرت فيها "حركة التوحيد الاسلامي" في الفترة الممتدة بين عامي 1982 و1985. بعد حرب طرابلس الشهيرة تسلمها الجيش السوري وغادرها في اواخر التسعينات من القرن الماضي، واستعادت تألقها عندما اصبحت